رابعاً

الطلاب محور العملية التعليمية

«تتطلب الدّقرطة من مواطنيها صفات لا تستطيع توفيرها، فالسياسيون يمكن أن يستحضروا آمالاً طموحة لمجتمع مزدهر، صحي وحرّ. ولكن لا توجد أيّ حكومة قادرة على توفير مواصفات عالية من الاستقامة، والرحمة، والمسؤولية الشخصية التي يجب أن تقوم عليها هذه الآمال.»

– يوجن هابرماس، Jurgen Habermas [1]

يحتل الطلاب مركز الاهتمام في طريقة تدريسنا، ولكن عندما نجعل الموضوعات التي ندرسها في بؤرة الاهتمام، وهو ما يفعله كثير من المعلمين، فإننا نخذل الذين ننوي تعليمهم. وعندما تكون طموحات المعلمين متدنيّة جدّاً، أو عندما يستسلمون دون تفكير لـ(أيديولوجية) الامتحان السائدة، فنتيجة ذلك مزيد من المعاناة للطلاب. إنّ من الغباء الحكم على قيمة التعليم بالاعتماد فقط على القياس وإعادة القياس الموضوعي. أما التعليم للتحويل، فيتطلب البدء بالطالب، وإعطاء أنفسنا الفرصة لمعرفة من الذي نُعلِّمه، ويشمل ذلك: الشخصية، والقدرة، والخبرة، والثقافة، والتطلعات. إنّ عملية التدريس في هذا النوع من التعليم تؤكد بناء علاقة ما. ولذلك، علينا أن نضع الطلاب في صلب عملية التدريس.

نانسي؛ معلمة اللغة الإنجليزية في إحدى المدارس الثانوية. شاركتنا في حقيقة بسيطة، توضح كيف يمكن لمعلمين يعرفون طلابهم حقّ المعرفة أن يؤثروا

(1) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني.

فيهـم بعمق. عندما كانت نانسي طالبة في المدرسة الثانوية، كانت رئيسة تحرير الصحيفـة المدرسية، وكانت تمضي وقتـاً طويلاً مع مستشار الصحيفة وزملائها الذيـن يكتبـون فيها. كانـوا يطبعـون صفحات الجريـدة معاً في مطبعـة قديمة، ويستخدمون المقص والشمع، ويلصقون المواد على لوح الطباعة. كان فقدان قطعة واحدة من الورق غير مقبول في عملهم. كانت نانسي أكثر رئيس تحرير طالب يقظة ونشاطاً على الإطلاق، وقد لمحت بطرف عينيها في أحد الأيام قصاصة من الورق تسقـط قريباً مـن الأرض. فجأة، صرخت: التقطوا تلـك الورقة. ضحك مستشار الصحيفـة ضحكة خفيفة، وقـال: على رِسْلك يا نانسي، دعيهـا تصل إلى الأرض أولاً. نانسـي، التـي أصبحت معلمة بعد ذلك، كان ذلك يعني لها: لا تقلقي مسبقاً، دعـي الأشياء تحدث أولاً، ومـن ثَمَّ ضعي خطة للتعامل معها بعد ذلك. لقد تأثرت نانسـي بعمق بهـذا المعلم الذي عرفها جيداً، واحترمهـا طالبة وإنسانة. وأدركت أنّه ساعدها لتتعلم قيمة الصبر، والتخطيط عبر علاقة تتسم بكثير من التقدير.

إنّ الصلـة بيـن المعلمين والطلاب هـي تلك العلاقة التـي تربط بينهم. ولكـن كيفية نظر المعلمين إلى الطلاب الذيـن يعلّمونهم هو ما يصنع التحوّل؛ أكاديميّـاً واجتماعيّاً وروحانيّاً. إذن، كيف نفهم طلابنا؟ في أيّ مكانة نضعهم؟ تبيّن القائمة الآتية المواقف التعليمية التي غالباً ما تظهر في غرف الصف:

- **التعالـي**: مـن الأعلى إلـى الأسفل، فالتعالـي يتمثل فـي موقف: أنا فهمت وأنت لا، الذي ينبع مـن الغرور. الغرور يتسـم بالأنانية؛ لأنه يحول دون تطويـر علاقة المعلـم بالطالب. إنه ينبثـق من العجرفة الناجمة عن الادعـاء بمعرفة كلّ شـيء، وهو أمـر لا أساس له على أرض الواقع. بدلاً من ذلك، على مهنة التعليم أن تنمّي روح التواضع عند المعلم. لذا، فنحن نـدرك في مهنة التدريس أننـا كلما عرفنا أكثر، ازداد جهلنا.

- **التحليل:** قد يقول بعض المدرّسين: سوف أهتم بالأجزاء، ولن اهتمّ بالقدرات التعلمية لطلابي. وجهة النظر هذه رائجة في المناهج التي تشدِّد على النتائج، حيث نجد أنّ التحليل سريعاً ما يفشل في متابعة الطالب بسبب الرغبة في تحديد هدف ما تماماً، وتدريسه وقياسه. وعلى الرغم من أنّ المقاييس المعاصرة قد وُضعت لدفع الطالب قدماً، فإنها يمكن أن تفضي إلى العكس تماماً؛ طلاب ضائعون تائهون في خضم الجهود المبذولة لتلبية معايير المساءلة. وعليه، فإنّ التحليل ينظر إلى الطلاب بأنهم مستهلكون، أكثر مما يرى فيهم موارد بشرية مستقبليّة.

- **الأحقية:** (أريد أن أعثر على أسهل طريق لإنجاز هذا العمل، وأن أكون محبوباً أيضاً) . تتبع وجهة النظر هذه من الأهداف الاجتماعية والروحانية التي سُمح لها بالتفوق على الأهداف الأكاديمية بدل التآزر معها. إنّ أكبر مخاطرة قام بها المعلمون التحويليون هي الثقة بالطلاب واحترامهم؛ فهذان الأمران، مثل الحب، يجعلان المعلمين ضعفاء أمام طلبات الطلاب، ورغباتهم، وألاعيبهم. ويصبّ هذا الشعور بالأحقية لمصلحة أسوأ اتجاهات الطلاب - وهي أنهم يستحقون صفوفاً أسهل، ونظاماً لوضع الدرجات، ومساراً في الحياة.

- **الشفقة والعطف:** (أريد بإخلاص أن أساعد الطلاب بإظهار اللطف والمحبة حتى لو كان ذلك مكلفاً لي) . هذا المنظور يبدو روحانيّاً إلى حدٍّ كبير- والواقع أنه كذلك؛ فالشفقة يظهرها المعلمون الملتزمون بأهداف كلية، وهو أمر لا يأتي بسهولة، بل

عـادة ما ينمو فـي نفوس المعلمين شيئـاً فشيئـاً. إنه حـبّ يوجهه التشديد المنضبط على الاحتياجات الحقيقية للطلاب.

- **التركيب والتوليف:** (إننـي أرى الطلاب أكثر مـن مجرد مجموع لبضعة أجـزاء. إنني أراهـم أشخاصاً في حاجة إلـى منحى متعدد الجوانب لتلبيـة احتياجاتهـم) . هذا المنظـور في التعليـم يتطلب أعظم عمل فـي المعرفة والاتجاه والجهد. الحـب أمر مطلوب، لكنّ الفهم والتعاطـف أمـران أساسيان للتركيـب، فسياقه كلـيّ وطويل المدى.

قـد يكون لدى المعلمين خليطٌ مـن اتجاهات التدريس. وما يحدث تغييراً في غرفة الصف هو توجهات المعلمين المزاجية نحو طلابهم. وهؤلاء المعلمون يمكنهم صياغة ما يعلّمونه وكيفية تعليمه. تنبيه: في الوقت الذي يحظى فيه من نُعلِّمهـم بالأولوية فـي نموذج أساليب التدريس التحويلـي، فإنّ غرف الصفوف التـي لي اهتمامهـم يجب ألاّ تتنـازل عن التوقعـات العالية المرتبطـة بالمواد الدراسيـة. ويجب أن يتضمن وضع الطلاب في صميم أسلوب تدريسنا، التزاماً عميقـاً بالصرامـة المطلوبة منهم لتحقيـق إمكاناتهم. وتتـدرج آراء المعلمين هذه من اهتمام شديد بتوجيه المادة التعليمية، مروراً بالحساسية الاجتماعية، وصولاً إلى الفهم الروحانيّ. من أجل توضيح هذا التدرج، انظر الشكل 1.4.

يحتـاج المعلمون إلى السلطـة الروحانية التي يحصلون عليها من احترام الطـلاب. وتشبه علاقـة الطالب والمعلم إلى حدّ كبير علاقـة الأبوة، فالعلاقة بيـن الوالدين والطفل مبنيـة على الحب الحقيقي، ونابعة مـن الاحترام والثقة المتبادليـن اللذيـن يؤديان في نهاية الأمر إلى نجاح هـذه العلاقة، سواء كانت علاقة أبوة أو علاقة تعليم.

طرائق رؤية الطلاب

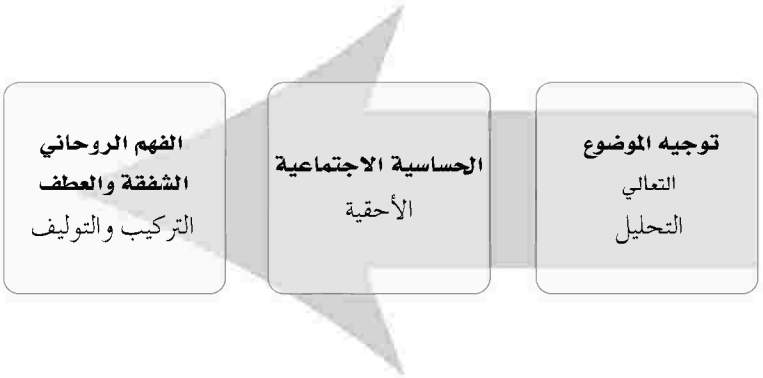

الشكل 1.4

حتى الاتجاهات الأنانية يمكن أن تؤثر في الآخرين

عندما سُئِل أبراهام لينكولن؛ الرئيس الأمريكي السادس عشر (1809–1865)، وكان عمره ثلاثة وعشرين عاماً، عن سبب سعيه للترشح لمنصب سياسي، قال: إنّ طموحه هو أن يحظى بالتقدير من خلال جعل نفسه جديرة بالتقدير (جودوين، 2005 Goodwin) . إنّ من مفارقات الحياة في الواقع أن اتجاهاتنا، الأنانية جدّاً في توجهها، مفيدة جدّاً في تغيير حياة الآخرين؛ فالمعلمون يقللون من أهمية تأثيرهم في الطلاب، وبصورة مشابهة، نبالغ نحن غالباً في أهمية معرفتنا؛ الحكمة تتطور عندما ندرك الجوانب الكاملة لدورنا في التعليم.

تروي روبين جاكسون (2009) Robyn R. Jackson قصة رائعة عن صديقتها ومعلمتها سنثيا. كان الطالب جيسي مستفِزّ. ذات يوم، رفض محاولات عدّة لإقناعه بأداء اختبار إكمال في مادة كان راسباً فيها. رفض وكفى، حتى عرضت عليه سنثيا أن تصنع له شطيرة من المربى وزبدة الفستق. وحين

سُئلت: أليست هذه رشوة؟ كان جوابها: أنتم لا تدركون القصد؛ فالشطيرة لم تكن هي المهمة، المهم هو أنني أعددتها له (ص. 49) . لأن سنثيا معلمة مهتمة ومتفهمة، عرفت ما يريده جيسي. كان جيسي أولوية لديها. ولأنها كانت تعرفه وتعرف أنّ أمه لم تعدّ له الشطائر مطلقاً، فقد بدأت من هذه النقطة؛ لأنّ الطالب سوف ينجز العمل في اللحظة التي يعرف فيها أنّ معلمه مهتم بأمره.

إنّ إيجاد علاقة من النوع الذي يجعل الطلاب يثقون أن هناك من يهتم بهم هو أساس التعليم التحويلي. لقد كانت حيوية العلاقة بين سنثيا وجيسي هي مفتاح التحول؛ الأكاديميّ والاجتماعيّ والروحانيّ. إنّ قصر النظر المأساوي لعصر المعلومات هو أنّ غرفة الصف ذات الاهتمام الشديد بالطالب هي قضية قديمة لا تستحق الاهتمام المعاصر.

التعليم الواعي

يجب أن يكون التعليم أكثر من مجرد تقديم معلومات، وهذا ما قاله لنا بفطنة الكاتب مارك توين: (التعليم ليس تقديم معلومات. لو أنه كان مجرد إعطاء معلومات، فسنكون كلنا أذكياء إلى حدّ لا نصدق فيه أنفسنا) (وارميللي، 2006، ص.3) Wormeilli. التعليم شيء أكثر من تشارك عالم الحقائق، وأكثر من تقديم المعارف. إنّ معرفة الموضوع وإيصاله إلى الآخرين بوضوح أمر ضروري، لكنه ليس كافياً. في الواقع، كلنا عرفنا أساتذة مؤثرين لديهم شغف ومعرفة في المبحث الذي يدرسونه، لكنهم لم يكونوا يهتمون بالاحتياجات الكلية. لقد تعلّم كثيرون منا التكيّف مع معلمين- باحثين، كانوا يمثلون صورة مصغرة للمعرفة التخصصية، لكنهم كانوا يفتقرون تماماً إلى التوجهات الإنسانية. وقد تعلّم بعضنا مع وجود أساليب التدريس القاسية تلك.

مـن ناحية أخرى، فإنّ المعلـم المهتم الحساس اجتماعيّاً، لكنه غير معدّ بعمـق لممارسـة تخصصه، لا يستطيـع أن يكون معلماً تحويليّـاً؛ لأنّ أيّ التزام بالأهداف الكلية مهما عظُم لا يمكن أن يُمَكِّنَ معلماً ما من التغلب على الإعداد الأكاديمـي الضعيـف أو سـوء التخطيـط. وما زالـت ثنائية (إمـا/أو) تهيمن بقـوة على التعليـم: فنحن ننجذب نحو فكرة أننا يجـب أن نختار بين المعلمين المتخصصيـن المنضبطيـن الصّارميـن، أو المعلميـن المملـين المتساهلين تماماً.

ثقافة (و)

غالباً ما يعاني المعلمون متلازمة تفكير (إما/ أو) . ونحن نرفض بعناد أن نغيّر أفكارنا أو خططنا قائلين: من المحتمل ألا نتمكن من التعليم بهذه الطريقة، وأننا لا نستطيع أن نُعلِّم بتلك أيضاً، والسبب في ذلك: (1) لم نمارس أيّاً منهما؛ لا هذه ولا تلك. (2) لا تبدو منطقية لنا ضمن أسلوب التدريس المحدّد الذي اعتذناه. (3) نحن نشكك، أو لا نثق، بدوافع أو تفكير الشخص الذي يعتنق تلك الفكرة الجديدة؛ أو (4) نحمل خليطاً من المبررات جميعها أعلاه. وهنا نسأل: لِمَ نفكر بهذه الطريقة؟

تُـرى، ألإننا شغوفون جدّاً بعملنا، أم لأننا متعنتون جدّاً حيال ما نظن أننا نعرفه. النصيحة الحكيمة هي أن نتجنب (أو) التي تؤدي إلى الشقاق وأن نتبنى (و) الرائعة جدّاً في الخلافات الإنسانية (تروبلود، 1996) Trueblood.

يجـب أن نفكـر في ثنائية: طالـب وموضوع، طالب متكامـل وقياس أداء، عالم ومتفهم، أكاديمي واجتماعي.

إنّ وضع الطالب في محور الأهداف التربوية مثير للجدل لدى كثير من الأكاديميين. وغالباً ما يأتي الخلاف من التخصص الذي يستدعي من الطلاب إتقان هرمية من الموضوعات المتخصصة، مثل الرياضيات والعلوم. ولا جدال في أنّ الإتقان في التعلُّم هدف قيّم جدّاً. ولكن، يجب ألاّ يكون الهدف الوحيد الذي نسعى إلى تحقيقه.

المعلمون التقليديون يرتابون في أيّ مخطط لا يقترح أن يكون الموضوع الدراسي محور الاهتمام الرئيس للتعليم. الرِّيبة هي المفتاح؛ لأنّ هؤلاء المعلمين أنفسهم يظنون أنّ غرفة الصف ذات الاهتمام الشديد بالطالب تؤدي حتماً إلى اهتمام متواضع للمحتوى. وفي الواقع أنّ ذلك يمكن أن يحدث في بعض الأحيان، وبخاصةٍ عندما يستسلم المعلمون لعقلية هدفها إرضاء الطلّاب. ولكن، ما لا شك فيه أنّ المعلمين الملتزمين والفاعلين غالباً ما يكونون معلمين عظماء. وهذا يحدث عندما يكون تشديدهم على طلابهم بقدر تشديدهم على مجالهم المهني.

الهدف السامي لعلم أصول التدريس (البيداغوجيا)

يقتنع بعض المعلمين بسهولة بثنائية (إما/ أو) في التعليم، وهم يزعمون أن المعلم ليس باستطاعته التشديد على كلٍّ من الطالب والمادة الدراسية في الوقت ذاته، فالوقت المتوافر لا يشمل سوى المحتوى. وفي الواقع أنّ مواءمة المحتوى مع والوقت هي النقاط الساخنة في الحديث عن علم أصول تدريس تحويلي متقدم. ويكفي القول: إن أقل الجوانب صعوبة في التعليم هي شرح المحتوى كله، لكن الهدف السامي في أساليب التدريس ينطوي بالتشديد على الاهتمام بالموضوع والطالب كليهما. فكّر في معلم يستطيع التدريس بطريقة تسهّل تذكّر المحتوى وتحوّل حياة الطالب. إنّ طريقة التدريس هي ما يبقى في الذاكرة بعد أن نكون قد نسينا ما تعلّمناه كلّه.

إنّ ثلاثيـةَ: العالِـم/ الممارِس/ المتفهِّم هدفٌ يمكـن للمعلمين تحقيقه. ولكـن، كم عـدد المعلمين الذين عملـوا مع زملاء، أو كانوا طلابـاً لدى معلمين كانـوا يعرفون موضوعهم، لكنهم لم يتمكنوا من تدريسه؟ هؤلاء الذين يعتقدون أنّ العلم كافٍ في غرفة الصف يميلون أيضاً إلى الاعتقاد أنّ تقديم المادة يشبه التدريس تماماً. إضافة إلى ذلك، هناك من يعتقد أنّ معلمي المرحلة الابتدائية هم ممارسون ناجحون لمهنتهم، ولا يحتاجون إلى معرفة واسعة. ولكننا نعتقد أنّ من الخطأ بالنسبة إلى المعلمين الاكتفاء بتحقيق دور أو دورين فقط من الأدوار الثلاثة؛ لأنّ التدريس من أجل التحويل هو في النهاية المسؤولية الفردية لكلّ معلّم.

إذا نظـرت إلى معلمي المدارس المتوسطـة، فسوف تجد أنه حتى أفضل المعلميـن إعـداداً وتفانيـاً ممن يعلمون في هـذه المدارس يواجهـون صعوبات احتـلال المشهـد العقلي والعاطفي للطلاب في مرحلة مـا قبل المراهقة. ومن المؤكـد أنّ دور المعلـم المتفاعـل حاسـم لطـلاب المرحلـة المتوسطة، حيث تكثـر الاحتياجات الاجتماعية والعاطفيـة والأكاديمية، وحيث يصبح التعاطف، فـي الأغلب، مفهوماً بعيـد المنال للمعلمين. تتطلب معرفة مـن نقوم بتعليمهم شمولية في الأدوار كما هي في الأهداف.

كيت، عبّرت لنـا عن ابتهاجها وشعورها بالحماسـ عندما ناقش طلابُها مـن المرحلة المتوسطة ذات يوم التبايـنَ الأدبيَّ في المدة الانتقالية من عصر التنويـر إلـى عصر الابتـداع (الرومانسية) . وفي مدة لاحقة مـن ذلك اليوم، اكتشفـت أنّهم يلعبـون لعبة تركيب الكلمـات على السبـورة. كان ذلك الإدراك المفاجئ بالنسبة إليها يتمثل في رؤية ذلك التناقض الصارخ في طلابها، الذي يتراوح ما بين المراهقة المعقدة والأطفال البسطاء المليئين بالبهجة. مثل هذه الملاحظة، لا تؤكد فقط الدور المتفاني، بل تساعد أيضاً على وضع الطالب في قلب العملية التعليمية.

المعلمون التحويليون يُشبعون الفضول الذي يقود إلى العمل البحثي، وإلى أنماط مستدامة من التعلُّم تستمر مدى الحياة. وهم يبحثون بصورة لا هوادة فيها لإيجاد مجموعة منوعة من الطرائق ليتعلم طلابهم، ولا يقنعون حتى تصبح مناهجهم الدراسية ذات صلة بطلابهم. ولكونهم أشخاصاً متفهِّمين، فإنّ لدى المعلمين التحويليين جانب ضعف يؤدي إلى مزيد من الضعف. المعلمون ذوو الخبرة يعرفون أنّ الضعف يجب أن يكون أيضاً قاسياً عند الحاجة، كما في الحب العنيف. وإلا، فإنّ أيّاً من أدوار المعلم لن يكون فاعلاً.

إنّ التعليم علاقة معنوية وأخلاقية؛ فالثقة بالطلاب تعني التعامل معهم غاية لا وسيلة. وإذا كنا نريد أن نكون أصدقاء لشخص ما مثلاً، فإننا نحبه لما هو عليه، وليس لما يجب أن يكون عليه. نحن نعامل الصديق، ليس بصفته وسيلة لنحصل على شيء لأنفسنا، بل غاية، وكياناً يستحق الاحترام الذاتيّ. إنّ الهدف من التعليم الذي يشدِّد على الأشخاص هو تعليم الطلاب بأنهم غاية، وبأنهم أفراد ذوو كرامة إنسانية عميقة. من جانب آخر، فإنّ هدف المعلمين الذين توجههم الاختبارات، والذين يشعرون بالضغط بسبب تهديدات أمنهم الوظيفي، هو خدمة مهنتهم من خلال تعليم الطلاب لتحقيق أفضل تحصيل لهم في الاختبارات، ربما على حساب خدمة الاحتياجات الأخلاقية والاجتماعية لهم. إنّ النماذج الأخلاقية التي يمثلها المعلم تُعدُّ أساسية لتقوية الشخصية، إضافة إلى فهم مضمون المادة وتأثيرها في الطلاب. ويرتبط التطور الأخلاقي للطلاب بمهارات صناعة القرار الجيدة المطلوبة لدعم الحرية في مواجهة التحديات الاجتماعية الجديدة.

كيف سيتذكرونك؟

كيف يمكن للمعلمين في المدارس الحكومية تعميق منحاهم الأخلاقي تجاه التدريس، ووضع طلابهم في مركز ما يقومون به؟ أحد التطبيقات للتعمق هي إستراتيجية توضيح القيم، وهي إستراتيجية تظهر في البداية غير مريحة، لكن هدفها هو الانعتاق في النهاية من خلال تربية طلاب يستطيعون كتابة نعي معلميهم بعد وفاتهم. عند التفكير في تلك المهمة، سيلاحظ الطلاب أنّ حياتهم تعتمد في الجانب الروحاني على ما يتجاوز الزمان والمكان الراهنيْن. ويمكن لهم أيضاً تحديد الصفات التي يريدون أن يتذكرها الآخرون فيهم، مثلما يتذكرون صفات معلميهم.

الصفات السلوكية

إنّ النظر إلى الطلاب بأنهم المحور في عملية التعليم يتطلب من المعلمين أولاً تحليل اتجاهاتهم تجاه التدريس والتعليم والطلاب. تحتل الاتجاهات، أو طبيعة شخصية المعلم، جزءاً من عالم التأثير الواسع بمعزل عن معرفة المعلم ومهاراته. وقد حدّد باحثان معاصران (ثورنتون، 2006؛ وتسووي، 2009) Thornton & Tsui الصفات المميزة للمعلمين، التي تعدّ مهمة جداً لتطوير الخبرات التعليمية، وشدّدا على أنماط التفكير، وكيفية سلوك المعلمين. يُعدُّ الاتجاه صفة أكاديمية، واجتماعية، وروحانية تؤثر في الكيفية التي يرى بها المعلمون طلابهم. ولمساعدتنا على استكشاف هذا النموذج الفكري، وصلنا إلى عمل بحث قديم لأحد الرواد في حقل علم النفس الإنساني، هو كارل روجرز Carl Rogers (1969) الذي حدّد ثلاثة اتجاهات أساسية للتدريس الفاعل.

كان روجرز أول من عرّف المعلمين في القاموس التربوي بالمُسَهِّلين والمُيَسِّرين للتعلُّم. لقد كان يبحث عن مصطلحٍ غير كلمة معلم، مصطلحٍ

يتناسب مع مفهومه عن معلم لا نية لديه لإجبار أيّ أحد على معرفة أيّ شيء؛ معلم يمتلك ثلاث صفات أساسية لتعليم فاعل هي: المصداقية، والتعاطف، والتقدير. المصداقية أو الأصالة، هي صفة للمعلمين الذين يكونون هم أنفسهم، لا يتغيرون سواء داخل غرفة الصف كانوا أو خارجها. المعلمون الذين يوحون بالثقة هم معلمون أصيلون؛ لأنّ طلابهم قادرون على الإحساس بنقاء نيّاتهم. ولهذا، فإنّ التعليم التحويلي ليس أداءً بل علاقة. والطلاب يعرفون أنّ المعلم الذي يرونه خارج غرفة الصف هو الشخص الأصيل الذي يرونه كلّ يوم داخلها.

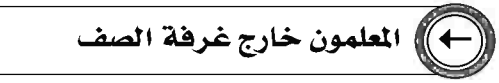

المعلمون خارج غرفة الصف

من الشائع أن يتجسَّسَ الطلاب على المعلم في المتجر أو المقهى، وأن يعبروا عن دهشتهم؛ لأنّ للمعلم حياةً خارج غرفة الصف. والطلاب، غالباً، ما يحصرون معرفتهم بمعلميهم في غرفة الصف والمدرسة التي يعملون فيها. ويستطيع المعلمون التقليل من هذه الدهشة من اكتشاف المعلمين في العالم الحقيقي- وعدد الجواسيس- ببذل جهد ليصبحوا حقيقيين. ونحن ننصح المعلم بأن يكون شخصاً حقيقيّاً ذا مشاعر حقيقية داخل غرفة الصف، وألاّ يقوم بدور المعلم كما لو أنه جزء من دور لممثل.

يتمايز التعاطف عن غيره من النزعات من خلال الفعل، إذ يرى المعلمون المتعاطِفون الطلابَ من الداخل إلى الخارج. إضافة إلى أنّ التعاطف يتجاوز الشفقة؛ لأنه يتضمن الرغبة في أن يضع المعلم نفسه في مكان الطالب. ويتصرف المربون المتعاطِفون بطريقة تتسق مع معرفة هويات الطلاب. ويتصرفون بطريقة تتسق مع معرفة طلابهم بصفتهم أفراداً، ومع تحديد ثقافة الطلاب وحياتهم وقبولهما، التي تشمل ضغوط الحياة الحديثة. إنهم يدعمون الطلاب في سعيهم لاكتشاف هوياتهم المخصوصة وفهمها.

تشير البحوث (ديوار، 2009 DeWar) إلى أنّ التعاطف ظاهرة معقدة تتضمن معنى الوعي بالذات، والأخذ بوجهة نظر الطرف الآخر، والتحكم في استجابات فعلك العاطفية. ويساعدنا على ذلك أن نفكر في التعاطف بأنه قدرة يمكن تطويرها بالممارسة. إنّ مساعدة الطلاب على الإحساس بالأمان في خضم عدم الاستقرار، والاعتراف بأننا نتشارك في خبرة إنسانية جماعية هي جزء من القدرة على التعاطف.

ديلوريس؛ معلمة متمرسة في العلوم للصف السادس. وقد تعلمت من خبرتها ومن البحوث، أنّ الأمن والقواسم المشتركة أجزاءٌ أساسية من التعاطف في التعليم. وعليه، طوّرت حسّاً قوياً بالتعاطف مع الأمن العاطفي لطلابها، وغالباً ما كانت تسألهم: كيف تشعرون عندما يتصرف أحدهم معكم بطريقة بذيئة أو لا مبالية؟ كانت ديلوريس تعلّم التعاطف بنمذجته. كانت تغتنم الفرص كلّ يوم لإعطاء نموذج للتعاطف بالتشديد على ما تملكه هي وطلابها من قواسم مشتركة مع الآخرين الذين يقعون ضحايا، سواء كانوا موجودين في الروايات الأدبية، أو على شاشة التلفاز، أو في الحي الذي يعيشون فيه. على سبيل المثال، اكتشفت ديلوريس أن جعل الطلاب واعين للصلات والتشابه مع ضحايا إعصار كاترينا أو الهزة الأرضية في هاييتي ساعد على تحفيز العمل المتأصل في التعاطف. لقد ساعد الطلاب على أن يكون لديهم ردّ فعل على مشاعر الآخرين وعلى التصرف بطرائق لطيفة ومفيدة.

التّقدير؛ الاتجاه السلوكيّ الثالث الذي حدّده روجرز. إنّ هذه الصفة لدى المعلم تُعدُّ مميّزة في حدّ ذاتها؛ نظراً إلى تشديدها على الفوارق بين الأفراد. لقد اختار كلمة التقدير للتعبير عن الكيفية التي يمكن لأفضل المعلمين أن يشعروا الطلاب عن طريقها أنهم جوائز فريدة. ويتجاوز التقدير الاهتمام أو اللطف.

وعلى أيّ حال، فإنّ هذا الميل لدى المعلمين يتجاوز التدريس إلى الفوارق الفردية، ويتجاوز التمايز إلى إضفاء طابع شخصي على التعليم. وباختصار، فإنّ تقدير الطلاب يمثل فكرة الهدف الروحاني في النموذج، حيث يُعامل الطلاب بأنهم مميزون وهم مقتنعون أنهم محطّ اهتمام خاص لدى معلميهم.

جيران السيد روجرز

يتحدث السيد روجرز إلى الأطفال بطريقة فريدة. كان يعرف جمهوره، وكان يقصده بالتواصل لا الترفيه، وكان يتواصل بطريقة جميلة. كان الأطفال يتراكضون لمشاهدة التلفاز ما إن يسمعوا صوته الهادئ يغني أغنية بداية برنامج الأطفال الذي يقدّمه. تُرى، ما سرّه؟ كيف يمكن لرجل متواضع مثله، بسترته الصوفية وحذائه الرياضي، أن يكون ناجحاً إلى هذا الحدّ مع الأطفال؟ في مقابلة مؤثرة أجريت معه على الهواء مباشرة، كان طفل على كرسي متحرك هو من أخرج أفضل ما عند فريد روجرز. كان المشهد الذي لم يتدرب عليه نابعاً من الإخلاص، والصدق، والحبّ، وليس من الشفقة. كان روجرز يعطي ذلك الطفل إحساساً بالتقدير، وهو يغني معه أغنية (أنت هو من أحبه). كان يُظهر يومياً مدى حبه للأطفال. ربما كان أعظم ما أسهم به روجرز هو هذا التمييز بين الواقع والخيال. كانت الدّمى وأشياء أخرى على المسرح تجعل الأطفال يشاركون في عالم الخيال. لكن روجر كان دائماً يعيدهم بعربته إلى الواقع. و ينتهي العرض دائماً بملاحظة تؤكّد الشخصية الفريدة للأطفال: لا يوجد طفل مثلك تماماً، ولم يوجد من يشبهك مطلقاً، ولن يكون... أبداً.

التقدير هو الصفة التي توجد الصلة. إنّ له تأثيراً قويّاً جدّاً إلى حدّ أنه وحده يمكن أن يبعث مشاعر تجعل معلماً بعينه يحدث فرقاً دائماً في حياة طلابه. وكما تصنع الاتجاهات السلوكية للمعلمين فرقاً في التعليم الشمولي، فإنّ الاتجاهات السلوكية للطلاب أساسية في التعلُّم أيضاً.

يمكـن للتعليم أن يستفيد مـن إعادة الاتصال مع الطـلاب واحتياجاتهم الكليـة، إضافـة إلـى تأكيـد أنّ الطـلاب كلّهم يتعلمـون يرتبـط بالأخلاقيات الديمقراطيـة الأساسيـة. ولأنّ الحياة البشريـة ثمينة وتستحـق الرعاية، فإنّ آلية تدريـس داعمة ستكون، بصورة طبيعية، الأساس لنظامنا التربوي ما دمنا ندرك أنّ النزعة الفردية ذات حدود.

نظرية العزو

يؤثـر المعلمون الحساسون المهتمون في أداء طلابهم بطرائق تسمو على الأداء الأكاديمـي، لكـن معرفـة المعلمين لأنفسهـم أمر أساسي أيضـاً؛ لأنّ ما يؤمنـون به يؤثـر في معتقدات طلابهم كذلك. لقد اتفـق علماء النفس التربوي على تسمية معتقدات الناس فيما يتعلق بمسببات النجاح والفشل مصطلح العزو (أو الإسنـاد) attributions. و يتضمـن العزو أشيـاء مثل: الجهد، والمقدرة، والحظ، ومدى صعوبة المهمة، والمزاج، والمظهر الجسدي، وسلوكات المعلمين أو زمـلاء الدراسة (تشنـك، 2008) Schunk. ومن المثير للاهتمام أنّ نظرة الطالـب إلـى نفسه ترتبط بهذه الإسنـادات بقدر ارتباطها بالواقـع. وغالباً ما تـؤدي المفاهيـم والتصورات في النهايـة إلى تكوين واقع الطالـب الشخصي. وأحيانـاً ما يعزو الطـلاب الأحداث إلـى أسباب داخل نفوسهـم، مثل الافتقار للمقـدرة أو أخلاقيـات العمل. وقـد اصطلحت كلّ من جيـن أورمرود (2004) وبيرنـارد وينـر (2000) Jeanne Ormrod & Bernard Weiner على تسمية هذه النظـرة (مركز الضبط الداخلي) internal locus of control. والأمثلةُ علـى هذا المركـز العواملُ التي تسند إلى ما هو خـارج عن سيطرتهم وذواتهم مثل: الحظ والمصادفة، أو حتى استهجان الناس.

أسلوب العزو

هناك مصطلح نفسي (سيكولوجي) مشابه هو أسلوب العزو (أورمورد، 2004) Ormond. يمكن للطلاب أن يفترضوا القدرة على الإتقان، وهنا يعتقدون أنهم قادرون على الأداء؛ أو يمكنهم أن يتبنوا اتجاهاً معاكساً يُعرف بقلة الحيلة المكتسبة، معتقدين أنهم غير قادرين على الأداء. إنّ أولئك الذين يفترضون أنّ لديهم أسلوب القدرة على الإتقان ينجحون بصورة أفضل في غرفة الصف وفي مضمار ألعاب القوى. وما لا شك فيه أنّ النجاح يولد النجاح، والفشل يولد العجز المكتسب، ولاسيّما عندما تُفهم القضية بأنها خارج مركز السيطرة الذاتيّة للفرد. إنّ المعلمين يستطيعون تغيير أسلوب العزو لدى طلابهم، بتغيير نظرة الطلاب إلى أنفسهم، ومن ثمّ تحسين أدائهم في غرفة الصف.

يؤدي وضع الطلاب في مركز فلسفتنا التعليمية إلى تعليم تحويلي، يبدو للطالب أشبه ما يكون بالمعجزات. ومن ذلك، التّحوّل المفاجئ بفعل الثقة المتولدة عن المعرفة، وإدراك أنّ العمل الشاق في القراءة والدراسة كان مثمراً، وكذلك أن تنعم برضا معلم تثق به، وأن ترغب فجأة في مزيد من المعرفة وطلب العلم وحدك. هذه كلّها معجزات التعليم التحويلي، ذلك التعليم العظيم الذي يتضمن تنشيط التفاعل بين المعلمين والطلاب.

ونحن نستعمل مصطلح حيوية (ديناميكية) المعلم - الطالب في مهنة التعليم بسبب الطبيعة المحفّزة، والمؤازرة، والمتغيرة للعلاقة بينهما. نحن المعلمين، نتخذ كثيراً من القرارات في أثناء تفاعلنا مع المتغيرات الإجرائية، مثل التخطيط والقياس؛ والنظرية، مثل المنظور المعرفي أو السلوكي؛ والتعليمية التي تشمل احتياجات الطالب ودوافعه.

التدفق

ذكّر عالم النفس سيكزنتميهالي (غاردنر، سيكزنتميهالي ودامون، 2001) (Gardner, Csikzentmihalyi & Damon) المعلمين بأن القيام بعمل مرضٍ يبعث على الارتياح. ويقول: «إنه بوجود البيئة السليمة (أهداف واضحة، وتغذية راجعة فورية، ومستوى من التحدي يتماشى مع المهارات) تكون لدينا الفرصة لتجربة العمل بأنه شيء جيد، أي، شيء يتيح لنا أن نعبّر عن أفضل ما فينا، شيء نختبره بصفته مجزياً وممتعاً» (ص. 5) . وقد وصف هذا المفهوم بكلمة التدفق flow، الذي عرّفه بأنه لحظات إنسانية ممتعة جدّاً، يمكننا أن نستغرق فيها في أداء سهل جدّاً. ولا شك في أنّ تحقيق التدفق هدف يستحق الجهد في التدريس والتعلّم، ولاسيّما إذا كان يتعلق بالعلاقة الحيوية بين الطالب والمعلم.

تعلّم الخدمة

إنّ التفكير فيما يهم أمر ذو قيمة، لكن اتخاذ خطوات عملية هو الذي يعزز الفهم؛ الأكاديمي، والاجتماعي، والروحاني، وإنه يساعد على تحقيق الذات. إنّ الإستراتيجيّة التي تربط الطلاب بالمعنى والهدف هي تعلم الخدمة. لذا، يتعيّن أن تكون الخدمة والتعلُّم متصلين في بنية الهدف في غرفة الصف. وعلى الرغم من أنّ المشاركة في برنامج مدرسي لخدمة المجتمع أمر قيّم ومفيد، فإن أهداف تلك الخدمة يمكن أن تذهب هَدَراً إذا لم تُربط بأهداف التعلُّم التي وضعها المعلم جزءاً من المنهج المطلوب. ولا يوجد تطبيق في دور التحويلي أعظم من القيام بهذا الدور، ذلك أنّ وظيفة التعلُّم تجسد التكامل بين الأهداف الأكاديمية، والاجتماعية، والروحانية في نموذج التدريس التحويلي، ولا شيء أفضل منها يمكن أن يجسد التدريس الذي يكون الطالب محوره.

بصفتنا معلمين، نستطيع تثبيت هذا الجانب العاطفي من ثقافة الشباب، إذ يمكن لإعطاء أمثلة عن الإيثار والنشاط من الثقافة الشعبية توفير جسر للربط بين المراهقين الذين يشعرون بالعزلة ورغبتهم في العثور على معنى لحياتهم عبر خدمة الآخرين. وبدلاً من إصدار الأحكام والنأي بأنفسنا عن الثقافة الشبابية الشائعة، يمكننا أن ندعم هذا المظهر العاطفي في طلابنا بذكره وإظهار الفخر به كلما رأيناه. (كيسلر، Kessler, 2000، ص. 71) .

يفتح تعلّم الخدمة المجال للتعبير عن المعتقدات الاجتماعية الثقافية. ولأننا نعيش في زمن يُعدُّ فيه تجسيد مفاهيم متنوعة في غرفة الصف أمراً حيويّاً، ولأنّ التنوع يجد معناه على أكمل وجه لدى خدمة الآخرين، فقد آن الأوان لإعادة دمج الجوانب الاجتماعية والروحانية للتعليم في صفوف المدارس الحكومية، من خلال تشجيع الخدمة في أهداف غرفة الصف.

الخدمة والتعليم ذو المعنى

ديبورا تتولى تدريس طلاب من عائلات ذات دخل منخفض، وقد علمت أنّ طلابها غالباً ما يفتقرون إلى الثقة بأنفسهم وعملهم في بيئة تعليمية تنافسية، في حين ينجحون في بيئة تعليمية صفيّة تعاونية، من النوع الذي يشجع على خدمة الآخرين. كان طلاب ديبورا يخدمون في جمعيات تقديم المساعدات الغذائية في مناطقهم، حيث يكونون على صلة بالحياة خارج المدرسة، ويعودون إلى الصف بخبرات واقعية عن القدرة على تجاوز الصعاب، وتحقيق الإنجاز. كان طلابها يكتبون عن خبراتهم، ويشاركون ما كتبوه مع زملائهم في الصف ومع الصفوف الأخرى في المدرسة. إنّ من شأن بناء علاقات داخل المدرسة وخارجها بدعم من ملاذ راشد مثل ديبورا - تعزيز الهدف والمشاركة في حياة طلابها المعرضين للخطر. كانت ديبورا تجسد الأدوار الثلاثة في التعليم؛ الباحث، والممارس، والمهتم وتجمع بينها.

لسوء الحظ، أصبحت الصفوف أكثر عقديَّةً؛ فوضع القانون وتطبيقه يهيمن على أجواء الصف، ويحول الانتباه عن تعليم الطفل المتكامل. وقد لاحظ نل نودينغز (2005) Nel Noddings أنه حتى عندما يلاحظ المعلمون أنّ الطلاب أشخاص متكاملون، ينشأ إغراء بوصف هذا الكلّ أنه أجزاء جُمعت معاً، والتأكد أنّ كلّ جانب، وجزء، ورافد مشمولٌ في المنهاج (ص. 12) . ونود التشديد أنّ الطلاب أكثر من مجموعة أجزاء، وأنّ أساليب التدريس التحويلي يجب أن تشمل التآزر في الأهداف، وأن يؤدي إلى إعطاء أهمية للطابع الفريد للطلاب بصفتهم متعلمين متكاملين؛ أفراداً يستحقون احتراماً خاصّاً في صميم جهودنا في التدريس.

لِمَ ندرّسُ؟ ما لا شكّ فيه، الجواب يشمل مَن ندرّسهم. نحن ندرِّس من أجل الطلاب، ليس فقط لتلبية احتياجاتهم الأكاديمية، بل لتحويل حياتهم والتأثير فيها. ويقول ألكسندر (2006) Alexander عن الواقع الأكاديمي: إنّ بعض الطلاب يبدؤون مشوارهم الدّراسيّ بمصادر تحفيزية ومعرفية محدودة ومتواضعة، في الوقت الذي يبني فيه آخرون على مصادر ثرية كانوا يمتلكونها مُسبقاً. ولمواجهة هذا الواقع، يقترح على المعلمين ألا يساهموا عن غير قصد في المشكلة عن طريق تجاهل ما يعرفه الطلاب فعلاً، أو عن طريق تكليفهم بمهام تعليمية لا تتناسب مع قدراتهم واحتياجاتهم (ص. 82) . ولا شكّ في أنّ هناك فرقاً بين الإحباط والتحدي، ولا يمكن أن يلاحظ الفرق بين ما يحبط الطالب وما يتحداه، إلا المعلمون الحساسون الذين يضعون الطلاب في صلب اهتمامهم، وفي مركز العملية التربوية بِرُمَّتِها.

أفكار ختامية

يصف هذا الفصل لِمَ يُعدُّ وضع الطلاب في بؤرة الاهتمام أمراً ذا أهمية قصوى. وقد رأينا مما سبق أنّ العلاقة بين المعلمين والطلاب تتجسّد في التفاعل الذي يؤدي إلى نجاح عملية التعلم، وكيف أنّ التخطيط والتنظيم للتدريس يتطلب فهم الطلاب. وعندها، يصبح اهتمام أساليب التدريس أقلّ على ما يود المعلم تدريسه اليوم، وأكثر على ما الذي سيؤدي إلى نجاح عملية التدريس ذاتها. إنّ نقطة البداية في التعليم التحويلي هي كيف نفهم طلابنا.

وفي حقيقة الأمر أنّ نظامنا الديمقراطي يفتقر إلى الأخلاقيات الأساسية لرعاية الطلاب أفراداً. ومن المهم أن يأخذ المعلمون في الحسبان المفاهيم النفسية (السيكولوجية) مثل: الميول، ومركز الضبط، وأسلوب العزو؛ لأنها هي ما يحدث الفرق في مدى تحسن أداء الطلاب في غرفة الصف. ولكي نغيّر مدارسنا بصورة حقيقية، علينا المضي في تعميق قناعاتنا عن احتياجات أولئك الذين نُعلِّمهم. ونكرّر التشديد هنا أنّ ربط التعليم بخبرات الطالب هي نقطة البداية في أساليب التدريس، ولكي نقوم بالتعليم من أجل التحويل، علينا التخلص من ازدواجية التفكير القائلة: إننا لا نستطيع تدريس مادتنا بصورة جيدة إذا وضعنا الطالب في صميم عملية التدريس ومحورها.

❋ ❋ ❋